من الأدب الفرنسي الرومانسي

الفرد دي موسّيه وَليَاليه

● تقديم : د. ابراهيم الكيلاني ● ترجمة : ماجد خير بك

التقديم

كانت ايطاليا الجميلة ، وما زالت ، مهوى الأفئدة وقبلة الانظار ، فيها تتجسّم الاحلام وتنبعث الرؤى ، وتكمل السعادات ، يرحل اليها محبو الفن ، وأرباب الذوق ، وأصحاب الجاه والثراء ، وروّاد المغامرات من كل سنخ وجنس ، ولئن متع أناس عيونهم بما خلقته الطبيعة فيها ، وما ابدعته يد الانسان ، واستجم آخرون بأضوائها وألوانها المتجددة على مر الزمان ، فان جميعهم واجدون غذاءً ، وانطلاقاً ، ولهواً ، ودفئاً روحياً وجسمياً معاً •

ولعل الشعوب اللاتينية وريثة حضارة يونان وروما أشد الشعوب تعلقاً بايطاليا ، وتقديساً لذكراها ومظاهر الحضارة العريقة فيها • فاذا أراد أحدهم ، أديباً كان أو مفناً ، مثرياً أو متشوقاً للمتع ، تصورَ السعادة ، كانت تلك البلاد الجميلة ، والعيش فيها حقبة من الزمن امنيةَ الأماني • فحفظت ايطاليا بمدنها القديمة الخالدة الشيء الكثير من قصص وأساطير العلماء والأدباء والمغامرين والعشاق لم يزدها بُعدُ الأيام والقدم إلا صفاءً وجلالا وروعة •

ومما حفظه التاريخ قصة واقعية جرت في البندقية بطلاها أديبان : امرأة ورجل ، المرأة هي الكاتبة جورج صاند، والرجل هو الشاعر ألفرد دي موسيه، وكلاهما يحتل مكانة في تاريخ الآداب العالمية . ولا بد لنا قبل شد الرحال معهما الى « فينيسيا » من الالمام بسيرتهما ، فهي شديدة الصلة بالموضوع ، ولا غنى عنها في تفهم بواعث هذه الرحلة الميمونة المشؤومة وتتبع مراحلها .

ولدت جورج صاند في باريز سنة ١٨٠٤ من أسرة بورجوازية قديمة . ومات ابوها شاباً وهي لمّا تزل طفلةً فكفلتها امها ، وهي امرأة تافهة ، ومن بعدها جدتها ، وهي امرأة مهذبة تمثل الطبقة المحافظة في فرنسا ويقال إن صاند كانت ملتقى عدة وراثات ، قد عرف من أجدادها ملك من ملوك بولونيا ، وراقصة في الاوبرا ، وصاحب حانة ، وتاجر طيور ، ومن هذا التضارب ورثت صاند صفات جسمية وخُلُقية منها : متانة البنيان والجرأة والاقدام ، وتناقض في السلوك والتصرفات ، ونهم شديد للاستمتاع بالحواس ، ونزوع قوي نحو المثل الأعلى .

تُركت صاند لوحدها على عَتَبَة الحداثة تربي نفسها بنفسها ، وقضت سني حداثتها في مرابع البيري غربي فرنسا تجوب الامكنة في نزهٍ ريفية طويلةٍ تمتّع عينيها بالنور، وتغذي نفسها بعِشرة الطبيعة، وفي السادسة عشرة زوجت من السيد دود فان ، وهو رجل محدود برمت به صاند لعدم إقامته للأدب والمواهب العقلية وزناً ، فقضت فترة من حياتها قبل الطلاق في عُزلة فكرية وعاطفية ، وبعد عشر سنين تركت زوجها برضى منه وهاجرت الى باريز مع ولديها سعياً وراء العيش ، ولم يكن يساورها يومئذ أيُّ طموح أدبي ، فبدأت

تحرر في مجلة أدبية صغرى مقالات لم تلق رواجاً • وقد توسم فيها مدير المجلة موهبة القصة فصار يشجعها على التأليف الروائي ، وفي سنة ١٣٨٢ نشرت صاند أولى رواياتها « انديانا » فكانت فاتحة حياتها الادبية • وقد بلغ نشاطها في التأليف حداً لم يؤثر عن الرجال بله بنات جنسها حتى أربت آثارها على المائة كتاب • ولم يلبث أن سطع نجمها فعُرفت في المحافل الأدبية والفنية فكثر أصدقاؤها وعشاقها والمعجبون بها • وكانت كلما امتدت الأيام ازدادت صاند خبرة بالحياة ومعرفة بالناس ، فتفتحت عواطفها ونضج عقلها فقرأت كثيراً وسمعت كثيراً ، وكان لتفتح ذهنها وقوة امتصاصه أثر في تلوين أدبها • وقرن نشاطها الأدبي بآخر سياسي اجتماعي فكانت من انصار الحركة العمالية الاشتراكية وموآزري ثورة سنة ١٨٤٨ •

وماتت صاند في مسقط رأسها نوهان سنة ١٨٧٦ بعد أن بلغت الثالثة والسبعين •

كانت صاند جميلة ، وكان في خطوط تكوينها نصيب وافٍ من تناسق الجمال الاغريقي الملطف بالرقة الاوربية العصرية ، وكان شعرها الكستناوي الغزير يتدلى من جانبي رأسها على كتفيها ، وعيناها الناعستان الغارقتان في سوادٍ جميل يعلوهما سائل كهربائي اللون يركزان الملامح الهامة في هيئتها ، ويصعب على من يقع تحت تأثيرهما الفكاك أو الخلاص ! ذلك أن نظراتها تشبه نظرات النائم اليقظان، واذا تحركت ملامحها جذبت الانتباه، وانتزعت إعجاب محدثها انتزاعاً ، وكان لها أنف جميل ، وفم مليح ، ولعل أبرز شيء فيها بعد عينيها صوتها الرخيم العميق المغلف كأنه آت من بعيد ، لأن صاند كانت

أميل للتأمل والصمت ، تتلقى اكثر مما تعطي ، لا تواضعاً أو تكبراً أو عجزاً بل سعياً وراء امتصاص اكبر كمية من كلام محدثيها لكي تُنضج هذا الكلام في أعماق نفسها ثم تبرزه فيما بعد وعليه طابعها الأصيل .

واذا شئتَ المزيد من أوصافها فان كتفيها بديعتان ، وكذلك ذراعيها ويديها وقدميها في غاية اللطف والصغر ، وكانت أقرب الى الامتلاء واعتدال القامة ، إلا الرأسَ ففيه كل معاني الفتنة والاغراء والمثل الأعلى .

أحبت صاند الحياة والحرية ، واختطت لنفسها مقاييس أخلاقية ارتضتها وسارتْ عليها ، وكان لها من نشأتها وطبيعةِ عصرها الروماتنيكي المتمرد على التقاليد والموافقات خيرُ معينٍ على ذلك فهجرت عالم المرأة الى عالم الرجال ، فتزيت بزيهم ، وتسمت بأسمائهم ، وتخلقت بأخلاقهم متحدية بذلك آراء ذويها وأوضاع مجتمعها ، كما أنها اوتيت طبعاً سمحاً سخياً فياضاً ذا اتجاهات متعددة ، إذ كانت تتنازعها ثلاثة عوامل رئيسية هي سر شخصيتها وتقلباتِ طبيعتها ، كان مزاجها أو دمها الحار كما قال أحد الادباء يدفعانها في تياراتَ الهوى والحب العنيف، تلتمس منه هزاتٍ وروافدَ لاحساسها وأدبها،مستجيبة في الوقت ذاته لنداء الأمومة ، كما كانت تتجاذبها دواعي التعبير الفني والعمل الأدبي فاستطاعت أن تُشبع الرغائب الثلاث كأحسن ما تشبعها امرأة" عبقرية مثلها ، فكانت عاشقة مثالية ، وربةَ بيت ممتازة ، وكاتبة" مجوّدة في آن واحد ، ومن الطبيعي ألا يتم هذا التركيب إلاّ بعد أ ندفعت صاند الثمن غالياً من خيبات عاطفية ، ومآسٍ نفسية ، ومغامرات مؤلمة ، وسمعةً مشينة وجدت فيها غذاء لروحها ووسيلة لتصعيد أدبها حتى قال أحدهم : إن السيدة صاند

فعلت المخازي ولكنها كتبت الروائع !

كانت تلتمس من وراء الحب الصفات المثالية عند من تتوسم وجودها فيهم من الرجال ، تعطيهم من حنانها وأمومتها وتضحيتها لتنعم بصداقتهم وعشرتهم فيكون لها من وراء ذلك تجديد لكيانها وهزة لشعورها • قالت مرة تدافع عن نفسها مشيرة الى حياتها العاطفية ومغامراتها : « إن العواطف أقوى من المحاكمات المنطقية ، وإن القيود التي فرضتها على نفسي لم تُجدني نفعاً ؛ لقد غيرتُ رأيي اكثر من عشرين مرة ، آمنت بالوفاء ، وفاءَ الزوجة لزوجها ، وبشّرتُ به ، وحرَصت عليه ، ودافعت دونه أمام هبوب العواصف ، ولما كفر الناس بالوفاء كفرت به أيضاً دون أن أشعر بوخزٍ في الضمير ، لأنني كنت مسوقةً في عملي بدوافع محتومة من القدر وغريزة المثل الأعلى الذي يجعلني اهجر النقص وأسعى نحو ما كان يتراءى لي فيه الكمال » •

وكانت صاند تعتقد بعد كل فشل عاطفي أنها لم تُحسن الانتقاء ، وأن المحبوبَ المثالي الذي سوف يقدّرها حق قدرها ، ويتحاشى الاساءة الى كرامتها لا بد أنه موجود ، وأنها سوف تلقاه لا محالة فظلت طوال حياتها تستعرضُ من يحيطون بها كما يستعرض السلطان في الحرم جواريه ومحظياته سعياً وراء واحدةٍ تلقى هوىً من نفسه حتى إذا جربها ، عافها وسعى وراء غيرها •

أما الفرد دي موسيه فقد ولد في باريز سنة ١٨١٠ إبان العهدالروماتتيكي من أب موظف مثقف ، وأم حسنة الحال ، وبعد دراسة موفقة فيالمعاهد الثانوية شرع في دراسةالحقوق ، ثم الطب ، وانتهت به الأحوال الى العمل في إحدى

محلات التعهدات البنائية ، ثم اهتدى موسيه أخيراً الى طريقه فعاشر كبار أدباء زمانه وفي طليعتهم فيكتور هوغو ، فنظم الشعر ونالت مقطوعته الأولى « الحُلُم » رواجاً عظيماً لفت الأنظار الى هذا الشاعر الحَدَث ، ثم تتابعت آثاره من شعر وقصص وتمثيليات وتراجم عن الأدب الانكليزي فكان من أشهرها : اعترافات فتى العصر التي عربها فيلكس فارس « والليالي » الاربع التي عبر بها عن آلام قلبه الجريح فكلٌ ليلة من الليالي تعيّن مرحلة من حياة موسيه وتجاربه العاطفية وأذكر على سبيل المثال لمن شدا من الأدب الفرنسي شيئاً بالليلة الاولى ، وهي ليلة مايس التي تدعوه فيها آلهة الشعر الى معاودة العزف على عوده بعد أن زهدت نفس الشاعر في الانشاد معددة له المواضيع التي تصح ان يجعلها مادةَ وحيه ، فيمتنع الشاعر عليها فتقول له الآلهة العبارة المشهورة : « لا شيء يجعلنا كباراً سوى الآلام الكبيرة » كما « أن أجمل الاناشيد هي التي تصدر عن اليأس » وتذكر له اسطورة البجعة التي بقرت بمنقارها بطنها لتُطعم صغارها أحشاءها .

ومات موسيه في السابعة والاربعين سنة ١٨٥٧ .

كان موسيه ذا طبيعةٍ حادة ، متناقضة ، قلقة قد تصل به الى حدود الجنون وإضاعة التوازن والتماسك النفسيين، كان جميلَ المظهر، ذا أناقةأصيلة منقطعة النظير كأنها عطيةٌ آلهية حتى عُدّ في زمانه في طليعة الشبيبة « الانيقة المُذهبة » ، وكان دأبه مطالعة الناس بالغرائب ، ومفاجأتهم بأناقة ملابسه ، وغريب حركاته ، هذا مع ولع بالسهرات الصاخبة ، والمراهنات العجيبة وكل ما من شأنه احداث الجلبة واللغط في المجتمع . وكان موسيه مَزّاحاً ، لاتفارقه

النكتة في أكثر الاوقات حرجاً . طلعة الى ابعد حدود التطلع ، يقرأ كل شيء ويهتم بكل شيء .

وصفه أحدهم في أول نشأته فقال : « كان شاباً غرانق ، ينسدل شعره على كتفيه ، له جبهة تنم عن الذهول اكثر منها التفكير ، وعينان حالمتان أكثر منهما مضيئتان ، وقامة ممشوقة فيها تثن ، يخيل للناظر أنها تنوء في سن مبكرة تحت ثقل شبابه الغض العنيف ، كل هذا مدعوم بجاذبية تفعل فعلها في وسط عجّاج باللهو والتهتك والنساء والشعراء ، ووصفه سانت بوف فقال : « هو الربيع ذاته ، ربيع الشعر يتفتح أمام أعيننا » .

كان موسيه عبقرية مبكرة ، دخلت الحياة كالسهم الناري دون استعداد أو نضج فاراد التهام لذائذ الحياة التهاماً ،حتى أصبحت الملذات عنده ضرورة حيوية مما أدى به الى الايغال في الشذوذ مدفوعاً بزهوة العمر ومنّة الشباب ، وإقبال الدنيا ، وكان في سلوكه أول الامر شيء من التكلف والقسر والمباهاة فلم يكد يتوسط ميدان الشباب ويقف على عتبة العشرين حتى استنفذ ما عنده من حيوية ، فجفت شاعريته ، وعصت عليه قريحته، فوجدت المهيجات والمكيفات والمخدرات الحسية والمادية طريقها اليه فأدمن الخمرة عله يجد في قعر الاقداح أو رغوة الشمبانيا أو بخار الأفيون أو النساء دوافع تعوض ما استعصى عليه في الطريق السوي ، حتى صار كالمريض الذي يُرغم نفسه على تناول الدواء فكان يشرب حتى الثمل وفقدان الوعي . قيل إنه كتبت اليه احدى قريباته وهو في حالة جفاف وتبلد وعطالة تدفعه الى نظم الشعر فأجابها « أرسلي لي نبضة من نبضات قلبك فسأردها إليك » .

وكانت الحياة المضطربة الفوارة التي كان يحياها سبباً في تبديد نفسه ، وهدر مواهبه ، فصار شعرُه يأتيه متقطعاً في شكل نوبات فجائية ، فاذا واتته القريحة وانقاد شيطانه أتى بالسحر الحلال ، وإلا حلت العربدات والمخاصمات وتحطم الاقداح ، والبكاء وجميع مظاهر الهذيان ، وما أكثر ما كان يهدد السماء بقبضتيه ، ويخاطب القمر شاتماً، في حالة عصبية يعلو الزبدُ فيها شدقيه!

إن من شأن ذوي الاعصاب المنهارة ، التأرجحَ بين حالتين متناقضتين : صحوٍ وغيم ، فهو تارة طيب ، ساذج ، متواضع لطيف المعشر تهزه أتفهُ الحوادث ، وتارة شيطان ضعيف الارادة، شرس متكبر ، مستبد ، ولا نجد فيه صفة طيبة إلاّ ولديه نقيضها وكذلك كان موسيه .

ثم إن من صفات العاطفة العارمة ، والاندفاعات الجنونية ان تستنفد بسرعة السائل العصبي ، قوام حياة الانسان الروحية والمادية الذي يبقى عند أناس آخرين في حالة صيانة او كمون مدة طويلة ، ولذا كانت علاقة موسيه بعشيقاته قصيرة لم تدم أكثر من ستة أشهر ، وبعضها لم يتجاوز اليوم ونصف اليوم .

ذلك هو الرجل الذي وضعته الاقدار في طريق جورج صاند ، فقد علقته لما آنست فيه من صفات الضعف ، وكان هو يعرف ذلك فحاول استغلال هذه الصفة على أنها ناحية من نواحي عبقريته ، داعماً اياها بالدلال والاندراء والزهو ، حتى اذا انتصر بضعفه أراها الوجه الثاني من نفسيته ، فانقلب الى مستبد ، قاهر ، جبار يسومها العذاب والهوان ، وكانت صاند تحتضن هذا الفتى المتمرد برعاية وصبر ، فكانتِ الرجلَ هذه المرة أيضاً ! ان علاقة موسيه

بجورج صاند من الحوادث التي اثرت في حياته فنجد صداها في آثاره ، وكان ، وهو المحتاج دوماً الى الهزات يتساءل قبل تعرفه عليها : « أشعر أنه ينقصني شيء لا أدري ما هو ؟ أحبٌ عظيم ام مصيبة كبرى ؟ ام كلاهما معاً ؟ فلم تحرمه الاقدار من الاثنين .

ويظهر ان الجواذب بينهما تنحصر في تشابه الأذواق ، واعجاب متبادل اكثر منه هوىً حقيقي ، على أن نواحي الخلاف اشدٌ واعمق وأهمها : المزاج فقد كان لكليهما « شعور نسائي وطريقة رجالية في التنفيذ » . وفارق السن : اذ كانت تكبره بسبع سنين . واختلاف العواطف السياسية والخصائص الفكرية التي يستحيل معها التفاهم ، فهي ثورية ذات نزعة جمهورية اشتراكية ، وهو محافظ شديد التمسك بالنظام الملكي .

غير أن صاند التي اتعبتها الخيبات العاطفية المتتالية ، وارهقها تبدل عشاقها كانت تعاني يومئذ ازمة عاطفية ، زد على ذلك خشيتها من الوحدة والانعزال ، فوجدت في مزاج موسية بلسماً لجراحها وبصيصاً من نشوة تخفف عنها من وطأة الماضي ومرارة الحاضر .

لقد كانت تثق بالناقد سانت بوف وتركن اليه في الزعازع والأهوال مستشيرة تارة ، ومفضية اليه بأسرارها تارة اخرى ، ولما افهمته أنها في حالة فراغ عاطفي أراد أن يرشح موسيه لملء هذا الفراغ ، فأجابت بعد ان ترامت اليها اخبار مجونه وتهتكه : « انه شاب مستهتر ، ولا نصلح لبعضنا » هكذا شاءت هذه المرأة ، وشاء القدر غير ذلك .

ولما دعيت الى الحفلة التي اقامتها مجلة « العالمين » لمحرريها لقيت موسيه،

فأعجبت بسذاجة هذا الغلام ، وقد استطاع موسيه بخفة روحه ان يزيل سياج الحيطة التي اعتصمت وراءه ، حتى إنه اضحك صاند الصامتة ، الشاردة النظر، القليلة الكلام ، اما هو فقد بهرته هاتان العينان اللتان ترمقانــه خلسة بنظرات استفهامية اختبارية، كما سحره لون بشرتها الاسمر ذي الانعكاس البرونزي ، مما أثار فيه رغبات دفينة .

لم يضع موسيه وقته بل عمد بعد رجوعه الى منزله الى قراءة قصتها « انديانا » وكتب اليها رسالة انتقد فيها القصة بلهجة جريئة فيها تهكم ودعابة قضت على ما تبقى من الحواجز وشيدت مكانها نوعاً من الألفة السليمة والعلاقة الأدبية ، ثم اعقب ذلك رسائل كثيرة تمكن فيها موسيه ان يدغـل في قلب صديقته دغلة المريب تذكرنا بقول ابن الرومي :

لك مكر يدبُّ في القوم أخفى　　من دبيب الغذاء في الاعضــاء

وفي يوم من الايام تلقت الرسالة الآتية : « عزيزتي جورج : لدي شيء سخيف أريد البوح به ، إنك سوف تهزأين مني ظناً منك اني رجل أحســن تنميق الكلام كما توهمت منذ بدء علاقتنا ، وإنك لن تترددي بطردي اعتقادا منك انني كاذب ... إني احببتك منذ اليوم الذي كنت فيه عنـدك ، وكنت أتوهم انني سوف ابرأ مما أصابني بسهولة في إعتبارك صديقة فحسب ... إنك ستقولين : « هاهو ذا رجل آخر جاء الآن يضايقني ، إنني أعلم ما يجول في خاطرك عني إني لا آمل شيئاً من وراء اقوالي هذه ، ولا يسعني عندئذ إلا التسليم بفقد صديقتي ولكن الحقيقة أنني أتألم وأن قواي تخذلني » !

ترددت المسكينة ، وقد حرص مؤرخو الادب على تصويرها كأمــرأة

رجلة ، تجيد فن اختطاف الشبان ، أو كغول تلتهم شبابهم الغض الطري ، وهي التي لم تتعد غايتها التسلية والهرب من نفسها وواقعها مع من توسمت فيهم الكمال ، فمنحتهم عطفها المكبوت ، وحنانها الفائض وكان اكثر ما صدها عنه ترامية على الملذات وسوء رأيه في المرأة اليس هو القائل : « إنني أحب النساء جميعاً ، واحتقرهن جميعاً » ثم ان الحب الذي تصبو اليه حب عميق ، ثابت الاركان ، واذا لم تخلص لمن عرفتهم في حياتها العاطفية فمرده الى الخيبة واليأس المسببين من الطرف الآخر .

وكأن موسيه ادرك مواطن الضعف فيها فكتب اليها رسالة مطولة ختمها بالعبارة التالية : « الوداع يا جورج إني أحبك كما يحب الطفل » .

كالطفل : هذه هي الكلمة التي أصابت منها مقتلاً ، هل اهتدى الماكر الى المفتاح الذهبي الذي يفتح قلبها الرجراج المتمرد ، إذ لم تكد تصل الى هذه الكلمة حتى سرت فيها قشعريرة ، فضمت الرسالة الى صدرها بيدين مرتجفتين ، وصارت تدور على نفسها قائلة : « كالطفل ، يحبني كالطفل ! رباه ماذا يقول هنا ؟ هل درى مقدار الأذى الذي رماني به ؟ »

حتى اذ لقيته ثانية تضرع إليها باكياً مسترحماً فلم يسعها الا الاستسلام ، وبعد زمن عندما وقعت الواقعة بينهما قالت له : « لولا شبابك ، والضعف الذي اوحت به دموعك الي لظللنا كأخ واخته . »

كتبت لسانت بوف تصف حالها في رسالة : « إنني سعيدة يا صديقي ، لقد تجنبته في باديء الامر ثم رجعت عن عزمي ، فعلت ذلك بدافع الشفقة لا الحب!

إن الحب الذي أجهله قد تجلى لي منزهاً عن الالآم التي أخشاها • » وكتبت أيضاً : «كل يوم ازداد تعلقاً به ، وإني الحظ الصغائر التي تؤلمني فيه تختفي رويداً رويداً » •

وفي الحق فقد كانت اول الأمر سعيدة مع هذا الطفل (تلك الكلمة التي كانت تلفظها مشحونة بحرارة الأمومة) حتى إنها استعادت فرحة شبابها ، فعم بيتها المرح والضحك ، فكان موسيه ينشر بأضاحيكه وعبثه البهجة في كل مكان ، تنكر مرة بزي خادم وحمل صحون الطعام الى الضيوف فانقلب إناء الماء على رأس احد المدعوين الفيلسوف ليرمنيه حتى كاد يشجه ، وكانت صاند تحب هذه المداعبات فهي ، كئيبة بطبعها ، ولذا كانت بحاجة الى هذا النوع من المرح العنيف، ودأب الطرفان حين يكتشف احدهما الآخر على ان يعرض كل منهما في عفوية ولا مبالاة امام صديقه ما اختزنه في نفسه ليفوز بثقته واعجابه تمشياً مع فرحة اللقاء الاول ، ولذا عم دار صاند مرح عظيم فقد توفر كل شيء، حياة حرة ، وألفة ، وأمل صاعد ، وهل بعد هذه الحياة امل في حياة أسعد وأكمل ؟

كانت من أماني كل أديب في ذلك الزمن أن يزور ايطاليا كما قدمنا ، حتى إن موسيه تغنى في قصصه باسبانيا وايطاليا دون ان يشاهد هذين البلدين ، وكذلك كانت صاند تحن لتلك البلاد الجميلة ، آملة أن تجد في السفر والاغتراب تجدداً ، فرحلا في اوائل شتاء سنة ١٨٣٣ ، وكانت صاند ترتدي لباس الرجال ، وتبدو عليها مظاهر الفرح فزارا في طريقهما مدينتي ليون وآفينيون ، ثم مرسيليا ومنها ابحرا الى جنوى • وكان موسيه يُرى على

الباخرة متلفعاً بردائه يشكو دوار البحر ، اما صاند فشوهدت ويديها في جيوبها واللفافة في فمها تنظر الى رفيقها الذاريخ نظرات لا تخلو من استعلاء ، إن لم نقل من رثاء ، وكان موسيه يشكو من صاند صلابتها ورجولتها وانكماشها عنه الى حد البرودة ، لأن هذه الرحلة الشعرية لم تحل دون انشغال صاند بعملها الادبي المتواصل المنظم ، والانقطاع كلّ يوم ثماني ساعات في الليل تقضيها في الكتابة والتأليف . وما أكثر ما كانت تغلق بابها بالمزلاج غير عابئة بتوسلات الشاعر المسكين ، وتلك ظاهرة عجيبة لم يكن يدركها موسيه بل كان يرى بصفته رجلاً ان مصير صاند المرأة في يديه يصرفه كيف يشاء ، ولكن مصير صاند لم يكن في يديه مما أدى الى طعنه في كبريائه ، فغدا شرساً سيء الطبع ، وصار يدعوها « الملل المجسم ، والمرأة الحاملة المتوحشة ، والراهبة الباردة وأنها ـ وتلك اعظم سُبّة وجهها اليها ـ اعجز من ان ترضي الرجال » ، وفي جنوى اصيبت صاند بالحمى ، والشهوة والمرض شيئان لا يجتمعان ، ولا يرضيان الرجال بحال من الاحوال ، فكان موسيه ينفر من الفراش الساخن بنار المحمومة ،الى دور الدعارة والشراب والنساء الرخيصات ، وكان يقول على مسمعها بشيء من التقزز : « ان منظر المرأة المريضة لمحزن ، وباعث على السأم والاشمئزاز » ، وصار ينزع الى استعادة حريته لأن في التغير تجديداً ، وان المفن لم يخلق للاستعباد والأسر ، ويظهر أن من شأن المرأة القوية الارادة،المالكة نفسها اقلاق الرجال وازعاجهم ، اذ تظل في هذه الحالة شاهداً واعيا على تصرفاتهم ، في حين ان الرجال يبغون من وراء الحب نسيان انفسهم ، ولم يكن غرض موسيه إخضاع صاند وإذلالها ، بل كان يريد اشباع غريزة التملك الكامنة فيه ،

تملك هذه المرأة التي اعترفت بنات جنسها بحرية أن سيدهن الرجـل ، والتي تأبى ان يملك قيادها احد" سواها .

كان الوصول الى فينيسيا التي كانت تسميها صاند من قبل : « فينيسيا الحمراء ، ومدينة الاحلام الفريدة من نوعها في الدنيا » والتي تصورها موسيه قبل أن تطأها قدماه « مدينة الرهبان الأنيقين ، والراقصات والحب والجنون » والتي قال فيها عن لسان احد ابطاله : « لنعش ونموت هنـا » أقول : كان الوصول الى فينيسيا كئيباً ، والوقت ليلاً ، وكان الجندول الأسود الـذي اقلهما يشبه نعش الموتى ، ولما دخلا المدينة وسطعت أشعة القمر الباهتة الحمراء على كنيسة القديس مارك بقبابها الصاعدة في السماء بدت كأنها بنيت كلها من الرخام الابيض ، وخيل إليهما امام القصر الدوقي بتقاطيعه الهندسية العربية ، وابراج اجراسه المسندة بألوف العواميد المشوقة أنهما امام لوحة فنية رائعة ، حادة الألوان ، ولم يدم استمتاعهما بمناظر فينيسيا في المساء لأن الحب هـو الذي يجمل الدنيا ويخلع على المناظر والمدن الروعة وليس جمال المدن والمناظر هو الذي يخلق المحبة او يغير القلوب . وفي المساء عندما حلا في فندق «دانيلي» اشتد أوار الخلاف ، وكادت صاند تحزم متاعها وتعود من حيث أتت لولا أنها كانت مريضة . فلم يترك موسيه الضجور الصخاب مظهراً من مظهر أنانيتـه وسوء خلقه إلا أظهره ، وما اكثر ما ابكى تلك العينين السوداوين ! ويقـول انصار موسيه إنه نفر منها في بادىء الأمر بدافع الملل لأنها كانت ــ وهذا دأبها مع عشاقها ــ تعامله معاملة الأم لولدها الصغير وتزوده في كل مناسبة بالنصح والارشاد خيفة عليه من تهوراته واندفاعاته الجنونية ، ثم تحول الملل الـى

اشمئزاز سواء لأنها مريضة ، او لأنها كانت تريد بانزوائها عنه اخفاء كرهها له بلباقة ، فلم يكن لموسيه بد من الاستسلام للتهتك والغوص في أعماق حانات فينيسيا الحمراء حيث تفوح رائحة المياه الراكدة ، وأنواع الكحول الرديئة • وكانت صاند جرياً على عادتها في الحفاظ على اصدقائها وصيانة مواهبهم من الضياع تدعو رفيقها الى الارعواء والتزام العفة والكف عن غلوائه ، وما أكثر ما كانت تنتظر عودته وحيدة لا يؤنسها سوى طقطقة مياه القناة على درج المنزل، ودبدبة اقدام الحراس ، وصيء الجرذان الحاد المنتشرة على ارض الميناء ، إنها لأصوات خفية غريبة تعكر صفو ليالي فينيسيا ! وفي أحد الأصباح عاد موسيه الى النزل ملطخاً بالدماء في احدى المشاجرات ، وما لبث ان انتابته نوبة عصبية ناشئة عن حمى دماغية ، او تيفوئيدية قديمة ، فكان منظره فظيعاً ، فقد روت انه كان ينهض في هذيانه عارياً ، فيركض في الغرفة صائحاً أو باكياً ، ولم يستطع رجلان شديدان كبحه إلا بصعوبة ، ثم يرتمي بعدها خائر القوى في إعياء تام • خافت صاند ، إذ قد يلقى موسيه حتفه ، فماذا تكون مسؤوليتها بل ماذا تكون خاتمة هذه الرحلة التي علقت عليها الآمال ؟ فاستدعت على عجل الطبيب باجللو وقصت عليه الحادثة مستعطفة انقاذ صديقها •

وقد اظهرت صاند عطفاً على المريض منقطع النظير ، وجلداً يندر وجوده ، على الرغم من توزعها ، والضيق المالي الذي تعانيه ، حتى تفتقت حيلتها لسد هذا النقص عن اشياء عجيبة : قالت تشكو : « هاهو ذا قد مضى عليّ ثمانية أيام ولم أخلع ثيابي ، أنام على المقعد ، وكان عليّ في كل ساعة أن أكون على تمام الأهبة لتلبية نداء مريضي ! » وفي تلك الدقائق الحاسمة التي تجمع فيها الحقد

والملل واليأس ورواسب أخرى عزمت صاند على الخلاص من هـذا المستبد الذي لم يرع للوفاء والحب عهداً واستبداله بغيره • فكان الطبيب باجللو ! كيف تم هذا الانتقال ؟ قالوا : إنه في ليلة من ليالي الشتاء الطويلـة كتبت صاند ثلاث صفحات من نثرها البديع وتناولت مغلفاً ووضعت فيه المكتوب ودفعته الى باجللو ، ولما لم يقرأ هذا عنواناً على الغلاف فهم أو تظاهر بعدم الفهم ،فسألها الى من يجب ايصاله ، وعندها انتزعت المغلف من يده وكتبت عليه : « الى السخيف باجللو ! » ومما جاء في الرسالة قولها : « ولما كنا ولدنا تحت سمائين مختلفين ، فليست لنا إذن ذات الافكار والتصورات واللغة ، ولكن هل لنا قلبان متشابهان ؟ إنني اعرف كيف أحب وأتألم ، اما أنت فكيف تحب ؟ إن نظراتك وحمية رغبـاتك تغريني وتخيفني في آن واحـد ، انني لا استطيع مقاومة هواك ، كما لا استطيع مشاطرتك إياه ، ولذا ارقبك بتعجب وشوق وقلق ! » •

ثم اعقب ذلك اسئلة متنوعة انتهت بهذه العبـارة « اني احبك لانك تعجبني » !

وكتبت اليه مرة : « وا أسفاه لقد تألمت كثيراً ، لقد جهدت في التفتيش عن الكمال دون العثور عليه ، هل أنت يابيترو الـذي سيحقق احلامي ؟ » •

وهنا حق لنا التساؤل عن سر هذا التحول ، كما تساءل من قبلنا النقاد ومؤرخو الأدب ، فانقسموا الى فريقين يناصر كل منهما من يعتقد أن الحق بجانبه ، ونحن اذا فرضنا أنه يمكن أن نعرف ما يدور في رأس المـرأة ، ومـا تنطوي عليه نزواتها الفجائية ــ وهذا من الصعوبة بمكان ــ نستطيع على ضوء

الحوادث القول : « إن امنية الأماني عند صاند التي اصبحت في حـل من موسيه أن تظفر بحب كالي ، مقيم ، وجدت في باجللو ، الشاب الجميل ، القوي البنية « الذي تصعد العافية من قلبه الفتي الى وجهـه النضير » ضالتهـا المنشودة ، ثم إن وجودها في فينيسيا وحيدة ، غريبة في عشـرة شاب شبـه مجنون يزيد في متاعبها جعلها تشعر أنها بحاجة الى سند اختلط عندها في غمرة القلق واليأس والذعر مع فكرة الحب ، ثم إن السهرات الطويلة امام سرير المريض ، والقلق المتبادل بينهما عليه قرب بين الرجل والمرأة ، والتعب كما يقولـون خير وسيط . زد على ذلك في النهاية عمل الخيـال لأن صاند ارادت ان تعوض بشخص باجللو ما حرمته من الاستمتاع بفينيسيا فأنابت التجربة العاطفية عن المتعة الشعرية ، فكأن جمال ايطاليا ومفاتن فينيسيا قد تقمصا شخص باجللو الايطالي .

ماذا كان تأثير الرسالة على باجللو ، الرجل الحيي ، الخجول ، الذي لم يحلم يوما ان ترفعه صاند الى مستواها ، يجيب هو نفسه قائلاً : « نعم ! إني لا أنكر بأن عبقرية هذه المرأة قد سيطرت علي واذابتني ! فاذا كنت أحببتها أول الامر فان حبي لها زاد بعد قراءتي الرسالة ، وكنت مستعداً للجود بما لدي لكي أراها عندئذ وارتمي على قدميها مقسما بالحب الخالد ، هيهات لقد فات الأوان فظللت امام الرسالة أقرأها اولاً وثانياً وبذات الحماسة ، غير أن بعض الجمل قد أيقظت في عند القراءة الثالثة شعوراً غامضاً مراً احسست أنه يصعد الى رأسي من اعماق قلبي !

لقد عصفت هذه الرسالة بقلبه الواهي ، فزالت معها حياته المطمئنة الهادئة

هدوء مياه القناة في فينسيا ، ، وأحس باجللو مرة اخرى على شاكلة الغزاة الغالبين من الرجال بانكسارهم أمام المغلوبات من النساء !

هل درى موسيه بالأمر ؟ ماذا عرف عن هذا التحول ؟ لقد كان يتقلب على فراش المرض في بحران الهذيان والحمى ، حتى اذا عاودته فترات صحو، رأى أو خُيّل اليه ، امرأة جالسة في حضن رجل في وضع مريب ، او رأى على الطاولة فنجاناً واحداً للشاي شرب منه الرجل والمرأة ، وزعم آخرون أن موسيه شاهدصاند يوماً تكتب رسالة توهم انها لباجللو، ولما اصر على ظنه هددته بارساله الى مستشفى المجانين ، وأنها قذفت بقطع الرسالة الممزقة من النافذة ، حتى اذا طلع الصباح نزلت صاند بلباس النوم الى الشارع تلتقط الجزازات المبعثرة !

والواقع أن دخول باجللو للميدان قد خلق لصاند عالماً جديداً لم يعد لموسيه فيه مكان ، لأنه اساء إليها وطعن في انوثتها وكبريائها ، فلتجعلنه إذن فريسة للغيرة الآكلة تلك الغيرة التي تنشأ عندالشخص الثالث عندما يأنس وجود تواطؤ بين اثنين أقصي عنه ، الى اليوم الذي يصطلح فيه المتخاصمان فيقصى باجللو بدوره فيذوق ما ذاق غيره •

لقد كان باجللو وسط هذا الجحيم يقوم بالنسبة لصاند بدور المنقذ ، يشد أزرها في حالات اليأس ، وتتكيء عليه لمقاومة المتاعب والعوادي • ألم تكتب فيما بعد في مذكراتها : « ياالهي ارزقني العزم الذي اعطيتنيه في فينيسيا، أعد إليّ حب الحياة الذي لازمني وسط افظع حالات اليأس ! » •

لقد علم موسيه بالحقيقة ، فلم يجد بداً من الفرار من فينيسيا المشؤومة ،

وعلى الرغم من الثورات الغضبية والتهديد بالقتل والحجز في مستشفى المجانين ، والمحاولات اليائسة للتوبة والندم واستعادة الحياة القديمة ، فقد خيم على الشاعر قبل رحيله سكون عجيب ، فكأنه لحظ هفواته ، وادرك عظم خطيئته فعزم على التضحية بنفسه ، فكان حينئذ اكثر اخلاصا وصدقاً من أي وقت مضى ، ففي ساعة من ساعات اليأس ، وبدافع من الجود والتسامح وضع موسيه بملء اختياره صديقته صاند وديعة بين يدي باجللو ، اعتقاداً انه الوحيد الذي يستطيع حماية هذا القلب المعذب الجريح . وقبل رحيله تواجد الثلاثة وجداً قوياً وبكوا وتعانقوا معتقدين على الطريقة الرومانتيكية أن الصداقة أجدى من الحب وأسلم عاقبة .

رحل موسيه الى باريز ، وبعد أن شيعته صاند وعانقته عناقاً اموميـاً ، عادت الى فينيسيا لتسكن مع باجللو داراً صغيرة عاشت فيها خمسة شهور في عزلة ، موزعة اوقاتها فيها بين التأليف والعمل المنزلي وكان موسيه اثناءها لا يفتأ يراسل صديقته صاند شاكياً يأسه ، مداويا جراحه ، قارئاً آلام فرتر وغيرها من المآسي الرائعة التي سخر منها فيما مضى ، آخذاً العدة لكتابة قصة حية الفت فيما بعد كتاب « اعترافات فتى العصر » .

أما صاند فقد كانت حياتها مع باجللو الهادىء الرزين ، البطيء الذكاء حياة باهتة تسير الى غاية من الملل ، لأن باجللو الذي تعلق بها دون أن يصعد الى النجوم كان بعيدا عن الشقاء ، غير متعب ، راضياً عن حياته كل الرضا ، فليس لها أن تحنو عليه وتعمل لاسعاده ،فهي كما قالت عن نفسها بحاجة الى التألم من أجل انسان ، كما أنها بحاجة الى صرف الفائض من شعورها

وإحساسها • وفي شهر تموز من سنة ١٨٣٤ عادت الى باريز وصحبها باجللو في هذه الرحلة وهو يعلم في قرارة نفسه أنه سيعود دونها ، ولم يسؤه في قرارة نفسه أن يتخلص منها ومن الشعور بالخطيئة نزولاً عند إصرار أسرته وأهله وأمه التي نصحته قائلة : « إذا صادفت يا بني في الحياة مظاهر تتنافى والقواعد الاخلاقية التي لقنتكها فاجتنبها لانها ستجعلك شقياً » •

ولما وصلا استقبلهما الباريزيون بالنقد والتجهم ، وكان أصدقاء صاند ومعارفها ينتظرون أن تجلب لهم شاعراً أو اديباً أو فناناً جرياً على عادتها في انتقاء عشاقها ، وأما أن تختار هذا الايطالي الركيك ، الكهام ، فهذا شيء غير معقول • فعاد • باجللو الى فينيسيا بعد ان عاهد نفسه على الماضي، فتزوج ورزق أولاداً ومات بعد أن نيّف على التسعين محاطاً بالذكريات يقصها على أولاده واحفاده ، وبهالة من المجد قرنت اسمه الى كوكبين من كواكب الأدب •

وبعد سفر باجللو جرب صاند وموسيه الصلح والحب الافلاطوني فكان كل ذلك تافهاً حقيراً وما زالا في مدٍ وجزر حتى وصلا الى القطيعة النهائية ، بعد أن حاولا عبثاً تحريك الرماد وبعث الجذوة الخامدة •

وقد تركت هذه الحادثة التي لم يخطىء أحدهما فيها إلا ببقائه كما هو أثراً عميقاً في نفسي البطلين اوحت اليهما بروائع هي صدى للمحزونين والتعساء الذين شقوا بالحب واكتووا بناره •

وكانت كلما نكأت الذكريات جرح الشاعر صاح بملء فيه :

يجب أن نألف الوحدة •

أيها القلب المعذب الذي يكاد يغفر جرحه
والذي لم يُجد الحب ، بل أجاد الألم .

ليلة مايس

ظلّ الشاعر صامتاً منذ مفارقته جورج صاند ، وإذا به يشعر في شهر مايس من سنة ١٨٣٥ ان « ثمّ شيئاً في نفسه يودّ الانطلاق » . فكتب في ليلتين ويوم وسط دافع حماسي شعري «ليلة مايس» التي تعدّ من اشدّ قصائده تأثيراً وأروع جرح صدر عن قلب فتيّ طفحت كأس عواطفه » . إن الحوار بين آلهة الشعر والشاعر انتقال للمشادة بين عبقرية موسيه الحسّاس بنداء التجديد وقلب الرجل المخدوع في حبه والذي اضلّه شقاؤه . ألم يقل موسيه نفسه : « إن اكثر الأغاني جمالاً اكثرها اغراقاً في اليأس ! »

الليالي ...

ترجمة : ماجد خير بك

آلهة الشعر ــ لايراها الشاعر ولكن يسمع صوتها ــ
أيها الشاعر ! خذ عودَك ، وأعطني قبلة ،
ان زهرة النسرين تشعر بأن براعمها تتفتح .
في هذا المساء ، يولد الربيع ، وقريباً تحترق الرياح .
لقد حطّ العصيفير الصغير ، منتظراً الفجر
على أوليات الأدغال الخضراء .
ايها الشاعر ! خذ عودك وأعطني قبلة .

الشاعـر

ما أشد كثافة الظلام في الوادي !

خيل إليّ أن شكلاً مقنّعاً
يتموّج في الغابة ،
لقد خرج من المرج ،
تلامس ساقه العشب المزهـر
إنه لحلم غريب
(ولكنه) يمّحي ويختفي .

ربـة الشعر ــ الصوت اكثر ثباتـاً ووضوحاً وحرارة ، وبـدأ قلـب الشاعر يخفق ــ

ايها الشاعر ! خذ عودك ، فالليل على المرج الأخضر
يداعب النسيم بملاءته الفطرة ،
والوردة ، لم تزل عذراء ، انها تنطق ، غيرى
على الزنبور المزركش فيموت من الشكر . (من عطر الوردة)
إصغ ، كل ما في الطبيعة ساكت ، فكّر بحبيبتك .
في هذا المساء ، ترك الغروب وداعاً أكثر لطافة :
تحت الزيزفونة القاتمة الاغصان .
كلٌ يُزهر في هذا المساء ، والطبيعة الخالدة
تمتليء بالعطر والحب والهمسات ،
مثل سريرٍ هانيءٍ يضمُّ زوجين شابين .

الشاعـر

لماذا يخفق قلبي بسرعة ؟

وما الذي فيّ يرتعش
فينتابني منه الذعر ؟
الا يُقرَع بابي ؟
ولماذا مصباحي المحتضر
يُبهرني بضيائـه ؟
يا الهي القدير ! كل جسمي يرتعش
من يأتي ؟ من يناديني ؟ لا أحـد .
أنا وحدي ، انها الساعة تدق :
يا للوحدة !
ربة الشعر ـ تُلِحّ وقد عرفها الشاعر واستقبلها ـ
أيها الشاعر ! خذ عودك ، ان خمرة الشباب
تختمر ، هذه الليلة في عروق الإلـه . (١)
ان ثديي قلِقٌ والشهوة تعتصره ،
والرياح الحرّى ألهبت شفتيّ .
أيها الولد الكسول ! انظرْ ، إنني جميلة ،
الا تتذكر قبلتنا (٢) الأولى
وذلك عندما رأيتك شاحباً جداً ، بلمسة جناحي ،
وعندما رأيت عينيك مغرورقتين بالدمع .

---

(١) الطبيعة وابوللون ـ إله الشعر ـ واحدٌ في نظر الشاعر .
(٢) قبلته بجناحيها

فسقطتَ وقتئذٍ بين ذراعيّ .
آه ! لقد عزّيتك في تألمك المرير [٣] .
واحسرتاه ! مع أنك كنتَ بعدُ صغير السنّ وكدتَ تموت حباً .
عزّني هذا المساء ، انني اموت في الأمل ،
وإنني بحاجة للصلاة كيما اعيش حتى الصباح .

الشاعر

هل انتِ التي يناديني صوتها
يا ربتي المسكينة ! أنت !! ؟
يا زهرتي ! يا مخلّدتي !
أنتِ الشخص الوحيد المخلص الحيّ
الذي ما زال يُحبني .
أجل ، إنك أنتِ ، يا شقرائي !
انت ، يا عشيقتي ويا أختي !
انني اشعر ، في هذا الليل العميق
ومن ثوبك الذهبيّ الذي يلفّني ،
أشعر ، بالأشعة تتسرّب الى فؤادي .

ربة الشاعر ــ في هذه المقطوعة الرائعة تعلمنا ربة الشعر ان جميع انواع الشعر فن يكتبه الشاعر الأصيل لا المفكر المتفلسف ــ

---

(٣) حبه الاول

ايها الشاعر ! خذ عودك ، هو أنا ، مخلّدتك
التي رأتك ـ في هذا المساء ـ حزيناً صامتاً ،
والتي ـ مثل طائرٍ تدعوه فراخه ـ
نزلتْ من علياء سمواتها لتبكيَ معك .
تعال ، إنك تشكو ، يا صديقي ! وبعض السأم الغريب
ينهشك ، ان شيئاً ما يتأوّه في قلبك ،
لقد أصابك حبّ ، وكما ترى امثاله على الارض فإن الحب
ظلٌ من اللذة ، ظاهر من السعادة .
تعالَ ، لنُغنِّ أمام الله ، لِنُغنِّ في افكارك
في لذائذكَ الضائعة وجهودكَ الماضية .
لنسافرْ في قبلةٍ نحو عالمٍ مجهول ،
ولنوقظْ ـ كيفما كان ـ اصداء حياتك ،
لِنَتحدّث عن السعادة ، عن المجد ، عن الجنون ،
وليكن حُلماً نستقبله كأول قادم ،
ولنخترع في مكان ما ، مواضع ننسى فيها سريعاً .
لنرحل ، نحن وحدنا ، الكون لنا .
ها هي ذي إيكوسيا(١) الخضراء وايطاليا السمراء
واليونان ـ أمي ـ حيث العسل الشهيّ ـ
قل لي : أي حلمٍ ذهبيٍ تهدهده اغانينا !

---

(١) ايكوسيا : اسكتلندا

ومن أين البكاء الذي نسكبه !
في هذا الصباح ، عندما يداعب النهار جفنيك
فأي ملاكٍ مفكّرٍ منحنٍ عند رأس سريرك
يهز أزاهير الزنبق في ثوبه الرقيق !
ويقصّ عليك بصوت منخفض حبّه الذي كان يحلم به !
ألا تغنّي الأمل ؟ ألا تغنّي الكآبة ؟ ألا تغنّي الفرح ؟
ألا نلطخ بالدم الفِرَقَ الفولاذية (١) ؟
ألا نعلّق الحبيب على سلّم من الحرير ؟
ألا نلقي الى الرياح الهوج زبد الفارس ؟
ألا تقول : أيّة يدٍ اشعلت ــ ليل نهار ــ
المصابيح التي لا عداد لها في البيت السماوي
من زيت الحياة المقدّس ومن زيت الحب السرمدي
ألا نقول لتاركان (٢) : حان الوقت ، ها هو الظل ؟
ألا تنزل الى أعماق البحار كي نقطف اللؤلوءة ؟
ألا نقود الماعز الى شجرة الابنوس المرّة (٣) ؟
ألا نشيرُ الى سماء الكآبة ؟
ألا تتبع الصيّاد في الجبال الوعرة

---

(١) اشارة الى اغاني الحب
(٢) اغاني الفلك والفلسفة
(٣) اغاني الرعاة وراء قطعانهم .

والوَعِلَةُ تنظر اليه وتبكي وتسترحمه ؟
ان عُشبَها ينتظرها كما ينتظرها أطلاؤها القريبةَ الولادة
ولكنه ينحني ويقتلها ويلقي قلبها ـ الذي لم يزل يخفق ـ
كحصّةٍ للكلاب المُجهدَة .
الا نرسم عذراء ذاهبةً الى الصلاة
ووصيفتها تمشي وراءها ـ عذراء نجدها الوردي ـ
تنظر الى أمها وهي الى جانبها
وتنسى شفَتَيها ـ النصف المفتوحة ـ صلاتَها ؟
إذ تصغي وهي ترتجف الى صدى
رنين مهماز فارسٍ شجاعٍ على المصطبة .
ألا نقول لأبطال الأزمنة الغابرة من فرنسا ،
كي يصعدوا شاكي السلاح الى ابراج حصونهم
وأن يُحبّوا القصة الساذجة
التي علّمها مجدُهم المَنسيّ للتروبادور (١) ؟
ألا نكسو بالبياض(٢) أغنيةً رخوةً ؟
ورجل(٣) « واترلو » سيسرد لنا قصة حياته
وما حصد بمنجله من قطيع البشر

---

(١) شعراء فرنسا في القرون الوسطى
(٢) كَفَن الشعر الوضيع الذي لا قيمة له
(٣) كان الشاعر لا يحب نابليون .

قبل أن يأتي رسولُ الليل الدائمُ
ويحطّمَ بضربة من جناحه عرشَه الأخضر
ويصلّب ذراعيه على فؤاده الحديدي ؟
ألا نسمّرُ على خشبة النقد
الاسمَ الذي بيع سبع مرات لهجاءٍ باهتٍ
الاسمَ الذي دفعه الجوعُ من أعماق النسيان
فجاء وهو يرتعد من الرغبة والضعف
ليشتمَ الأمنيةَ على جبين العبقرية
ويعضَّ النارَ الذي وسّخه بنفسِه ،
خذ عودك ، خذ عودك ، لا استطيع السكوت
إن جناحي يرفعني مع أنسام الربيع ،
ستحملني الرياحُ قريباً ، وسأترك الأرض .
دمعةً منك . ان الله يُصغي اليّ . حان الوقت .

الشاعـــر

إن لم تكوني بحاجةٍ ، يا أختي العزيزة !
إلاّ الى قبلةٍ من شفةٍ صديقة
والى دمعةٍ من عينيّ
فانني أقدمهما لكِ دون عنـــاء
وليذكّراكِ بحبنـــا
أما اذا عاودت الصعود الى السموات ،

فلن أغنّي حبي الذي تذكرينه
ولن أغنيَ الأمل
ولا المجدَ ولا السعادة
واحسرتاه ! حتى ولا الألم ،
سيلزم الفم الصمت
كيما اسمع القلب يتكلم •

ربة الشعر

أتظنُّ إذاً أنني سأكون مثل هواء الخريف
الذي يتغذّى بالبكاء حتى على قبر ،
والذي عنده الألم مثل قطرة الماء (في فم الظمآن)
أيها الشاعر ! أنا التي اعطيك القبلة ،
أمّا العشب الذي اريد اقتلاعه
ليس الا خموتك • فألَمُكَ لله
ومهما كان السهم الذي يعانيه شبابك
فدع هذا الجرح المقدس يتسع
ذلك الجرح الذي أحدثته فيك ملائكة الألم
لا شيء يجعلنا عظماء الا الجراح العظيمة ،
ولكي تصل اليها (١) ، فلا تظنُّ أيها الشاعر !
بأنّ صوتك هنا ــ في الأرض ــ سيظلُّ أبكم

(١) الى الجراح العظيمة

إن اجمل الأغاني اكثرها نصيباً من اليأس
إني أعرف اغاني خالدة هي نحيب صِرْف
عندما تعب البَجَعُ من جَوْلتِهِ الطويلة (١)
وعاد في ضباب المساء الى قَصَبه ،
فأسرعت فراخُه الجوعى نحوه متدافعة على الشاطيء
مذ رأينه من بعيدٍ يتخبط على الأمواه ،
لقد ظننّ انهن سيتقاسمن ما جلبه لهن
ركضن إليه وهن يطلقن أصوات الابتهاج
محركات مناقيرهن على أعناقهن البشعة .
أما هو ، فصعد بكل تؤدة ، وعلى صخرة مرتفعة
غطّى فراخه بجناحه المتدلّي .
إنه صياد حزين (٢) يرمق الفضاء
والدم يتدفق بغزارة من صدره المفتوح .
لقد جاب البحار منقباً في أعماقها ولكن دون جدوى .
كان المحيط خالياً والشاطيء مقفراً .
ولم يجد من الأغذية سوى قلبه .
وتمدّد على الصخرة كئيباً صامتاً
تاركاً أبناءه يتشاطرون احشاءه .

---

(١) خير مثال للشاعر
(٢) لأنه فشل

لقد هدهد الآن بحبه السامي النبيل ،
فهو يتأمل سيلان ثديه المدمّى
ترنحَ ، تهاوى في مأدبة الموت
سكرانَ من اللذة ، والحنان ، والهوْل .
ولكنه أحياناً ، وسط هذه التضحية الالهية
وقد انهكه الموت وسط عذاب جدّ طويل
خشي ألا تتركه حياً
ولذا نهض وفتح جناحيه للريح
وطعن قلبه ـ بمنقاره ـ وأرسل صوتاً وحشياً
صارخاً في الليل وداعاً فاجعاً
قال : لِتهجر طيور البحر الشاطيء ،
وليَتأهّب ـ للقاء الله ـ
كلُّ مسافرٍ استوقفته الرمال
وكل شاعرٍ غمرته الوحشة .
أيها الشاعر ! هكذا يفعل كبارُ الشعراء
يُفرحون أبناء زمنهم
ولكن مآدبهم البشرية التي يقيمونها في أعيادهم
يشبه اكثرها مأدبة البجع .
وعندما يتكلمون عن الأمل الخادع
وعن الأسى والنسيان والشقاء ،
فهذه كلها ليست نَغَماً تَسُرُّ الفؤاد ،

ان أناشيدهم كسيوف :
تخطُّ دائرة باهرة في الهواء
ولكن يعلق عليها بعضٌ من قطرات الدماء

الشاعـر

يا ربة الشعر ! أيها الشبحُ الجَشع
لا تطلبي مني ما يطول ،
ان الرجل لا يخطُّ شيئاً على الرمل
في لحظة مرور العاصفة .
رأيت الزمن ــ حين كان شبابي
الذي لم يزلْ على شفتيَّ ــ
مستعدّاً (1) للغناء مثل طائر
ولكن تحملتُ استشهاداً قاسيا ،
وأقل ما يمكن أن أقول عنه
انني اذا ما غنيته على قيثارتي
أن يحطّمها لما تحطم القصبة .

ليلة ديسمبر ــ كانون الاول

لهذه الليلة طابع رومانطيكي يتجلّى فيها أكثر من ليلة مايس . والازدواجية تختلف ــ أي ازدواجية الشاعر وربة الشعر لان كليهما واحـد ــ فموسّه

(1) اي الزمن

تلميذ ، شاعر بالفطرة ، مغرم ، ساذج ، خليع ، يتيم ، رحالة ، فهو يرى في كل مكان ازدواجيته ، حتى وفي كل وجه ، لقد تعب فؤاده وعيناه •

في هذه الليلة يعيد مخلفاته المقدسة الى امرأة كان يحبها وهي قد صدفت عنه • وضيفه المواظب ليس الا «الوحدة» • وكما قال أخوه «بول موسّه»: ان هذه الليلة مستوحاة من قطيعة امرأة أخرى غير « جورج صانـد » • امـرأة متزوجة ولكنها ندمت على ما فرط منها فهجرته • ان قوله هذا ممكن" ، ولكن كيف تفسر بعض التعابير القاسية ؟ وهل تتقبل أن الألمين ـ قطيعة هذه المـرأة وقطيعة جورج صاند ـ ذابا في بوتقة واحدة ليشكلا ألماً واحداً ؟

الشاعـر

عندما كنتُ طالبا
بقيتُ ساهراً ، ذات مساء
في غرفتنا المنفردة •
وأمام منضدة ، جاء تلميذ"
مسكين يرتدي السواد وجلس :
انه يُشبهني كأخ

❋ ❋ ❋

كان وجهه كامداً وجميلاً
على ضوء مصباحي ،
وفي كتابيَ المفتوح طفق يقرأ

وأسند جبهته على يدي
وبقي هكذا حتى اليوم التالي
يفكّر وعلى ثغره ابتسامة حلوة .

* * *

ولما بلغتُ الخامسة عشرة
كنتُ أتمشى بخطاً بطيئة
في غابةٍ ، وعلى النّباتِ .
وعند ساق شجرة ، جاء
شاب يرتدي السواد وجلس
إنه يشبهني كأخ .

* * *

سألته عن طريقي ،
وكان يُمسِك باحدى يديه عوداً
وفي الثانية طاقة من نسرين ،
فالتفت إليّ نصف التفاتة
وأشار باصبعه نحو الهضبة .

* * *

وفي السِّنِّ الذي يطلب الحب ،
كنتُ ــ ذات يومٍ وحدي في غرفتي

أبكي بؤسيَ الأول . [1]
وفي زاوية من موقدي ، جاء
غريب" يرتدي السواد وجلس .
انه يشبهني كأخ .

❊ ❊ ❊

كان كئيباً مضطرباً
يشير باحدى يديه الى السموات
وبالأخرى يُمسِّك سيفاً . [2]
ويبدو أنه يتألم لألمـي ،
ولكنه لم يرسلْ إلاّ زفرةً واحدةً .
ثم تلاشى مثل حلمٍ .

❊ ❊ ❊

وفي سن الفجور [3] ،
كنتُ في وليمة ــ ذات يوم ــ .
ولكي أشرب نخباً
رفعت كأسي . فجاء الى أمامي

---

(١) ليس المقصود جورج صاند ولكن اولى تجاربه في الحب
(٢) الشهوة التي تثقب الفؤاد
(٣) الركض وراء المراة .

مدعوٌ يلبس السواد وجلس .
انه يشبهني كأخ .

* * *

كان يهز تحت معطفه
ثوباً مهلهلاً من الأرجوان
وعلى رأسه آسٌ ذابل .
كانت ذراعه تطلب ذراعي
وما إن لمستْ كأسي كأسهُ
حتى تحطمت في يدي الضعيفة

* * *

وبعد سنة ، في ليلة ليلاء ،
كنت راكعاً قرب السرير ،
وعليه أبي يلفظ نفسه الأخير .
جاء يتيمٌ وجلس عند رأس السرير
وكان يرتدي السواد ،
انه يشبهني كأخ

* * *

كانت عيناه غارقتين في الدمع
كملائكة الألـم .

وكان على رأسه تاج من شوك
وعوده على الأرض ، يحتضر
وثوبه الأرجواني يحكي الدم
وسيفه في صدره (مغمود)

* * *

فتذكّرتُه جيداً
لقد عرفته ، طالما شاهدتُه
في كل لحظة من لحظات حياتي .
انه حلمٌ غريب ،
ومع ذلك ، رأيته في كل مكان .
وسواءٌ لَدَيَّ أكان ملاكاً أم شيطاناً
انه ظِلٌّ صديق

* * *

وبعد زمنٍ طويلٍ ، وقد اجهدني الألم ،
اردتُ أن أنفي نفسي من فرنسا (١) .
إمّا لأولَدَ من جديد واما أن انتهي .
لقد عييتُ من السير
فاردت السفر كيما
افتّش عن بقايا آثار أمـل .

---

(١) سفره مع جورج صاند عشيقته الى ايطاليـا .

في كل مكان ، تحت هذه السموات الرحيبة ،
اجهدتُ فؤادي وعينيَّ
وكلاهما يَدْميان من جرحٍ خالد ،
في كل مكان ، يجرُّ حقدُ الحياة
جهودي وراءه ،
ويتمشى بي على حصير من صفصاف

* * *

في كل مكان ، كنتُ أتلظّى ظمأ
ودائماً من عطش عالمٍ مجهول
لقد تبعتُ شبحَ أحلامي ،
في كل مكان ، حتى في المكان الذي كنت لا أعيش به
رأيت ما كنت أرى
الوجهَ الإنسانيَّ واكاذيبه

* * *

في كل مكان ، وعلى طول دروبي
اخذتُ رأسي بين يديّ
متأوهاً كامرأة .
في كل مكان ، ومثل حَمَلٍ
تركَ صوفه على الدّغل ،
شعرت ان روحي تتعرّى .

* * *

في كل مكان اردت فيه النوم ،
في كل مكان اردت فيه الموت
في كل مكان لامست الأرض راكعاً ،
في طريقي ، كان بائس" يأتي
ويجلس وهو يرتدي السواد .
انه يشبهني كأخ .

* * *

من أنت إذن ؟ أنت الذي
أراه طوال حياتي في طريقي ؟
لا أستطيع أن أصدّق ــ مِنْ أساك ــ
بأنك قدَري الرديء .
ابتسامتك الحلوة فيها الكثير من الصبر ،
ودموعك تنمُّ عن الكثير من الإشفاق .
عندما أراك أحبّ العناية الإلهية .
حتى أن ألَمَكَ أخو ألَمي
إذ إنه يشبه الصداقة

* * *

من أنت اذن ؟ لست بملاك الخير ،
لم تأت قطّ اليّ وتنذرني ،
إنك ترى أدوائي ــ وهذا شيء غريب ــ

وتنظر إليّ وأنا أتشكّى .
منذ عشرين عاماً وأنت تعترض سيري .
لا أعرف بماذا ادعوك .
من أنت اذن ؟ واذا كان الله قد أرسلك
فإنك تبتسم لي ولا تشاطرني أفراحي
وتُشفِق عليّ ولا تعزيني .

* * *

في هذا المساء ايضاً ، رأيتك تظهر لي
وكان ذلك في ليلة حزينة ،
وجناح الرياح يقرع نافذتي ،
كنت وحدي منحنياً على سريري .

* * *

كنت اجمع رسائل الماضي :
شَعراً ونِتَفاً من الحب .
وكان الماضي في كل ذلك يصرخ في أذنيّ بأيمانه الخالدة ،
كنت أتأمل تلك المخلفات المقدّسة
التي تجعل يدي ترتعش
والتي تجعل دموع القلب يلتهمها القلب
والتي تجعل من عينيّ الباكيتين
لا تعرفان الغد مطلقاً

لففتُ في مِزقةٍ خشنة من الصوف
تلك المخلفات من أيامي السعيدة ،
وكنت أقول لنفسي : الذي يبقي على هذه الأرض
هو ذؤابة من شعر .
ومثل غاطسٍ في بحرٍ لجّيٍّ
ضعتُ في خِضَمٍّ من النسيان ؟
أديرُ آلة الأعماق في كل الاتجاهات ،
وكنت أبكي وحدي ، وحدي بعيداً عن أعين الناس
أبكي حُبيَ المسكين المدفون .

* * *

وأوشكلت أن أضع خاتم الشمع الأسود
على ذلك الكنز(١) العزيز السريع العطب
لأعيده الى مصدره ، وأنا لا أصدق ما أقوم
وأبكي ، ولا أصدق (هجرانك لي) .
آه ! أيتها المرأة (٢) الضعيفة المتكبرة المجنونة
ستتذكرينني رغماً عنك .
لماذا ــ يا إلهي العظيم ــ تكذب على افكارها
لماذا ذلك البكاء ، وذلك الحَلَق المسحوق
بتلك الآهات ، ان لم تكوني تُحبّين

(١) الرسائل المتبادلة مع من احب .
(٢) جورج صاند .

ولكن فجأةً ، رأيت في الليل الحالك
شكلاً ينزلق دون أن يُحدث صوتاً
وعلى ستارتي رأيت ظِلاً يمرّ
وجاء وجلس على سريري .
من أنت اذن ؟ ايها الوجه الحزين الشاحب !
ايتها الصورة القاتمة المجللة بالسواد !
ماذا تريد مني ، أيها الطائر البائس في مرورك بي ؟
هل هذا حلمٌ باطلٌ . هل هذا صورتي حقاً
ما أرى في المرآة .

* * *

من أنت اذن ؟ يا شبحَ شبابي !
أيها المتجول الذي لم يتعبه شيء !
قل لي : لماذا أجدك دائما
جالساً في الظلّ حيث أمرّ ؟
من أنت اذن ؟ أيها الزائر الوحيد !
والضيفُ المواظب في آلامي ؟
ماذا جنيتُ لتلاحقني على هذه الأرض ؟
من أنت اذن ؟ من أنت اذن ؟ يا أخي !
الذي لا يتراءى إلا في أيام بؤسي .

* * *

الحلم (الشبح)

يا صديقي ! أبي ابوك
لست الملاك الحارس
ولا القدرَ المشؤوم للبشر
لا أدري الى أي جانب
تذهبَ الخُطا بالذين احبهم
في هذا الوحل[1] القليل الذي نحن فيه

* * *



لستُ إلهاً ولا شيطاناً .
وقد دعوتَني باسمي
عندما ناديتني بأخيك .
أنّى تذهبْ اكنْ معك
حتى آخر أيامك ،
وعندها أجلس على شاهدك[2]

* * *

لقد أودَعتني السماءُ قلبك
عندما تتشكّى من الألم .

---

(١) الارض
(٢) شارة توضع على القبر .

تعال إليّ ولا تَخَفْ
سأتبعك في الطريق ،
ولكنني لا أستطيع أن ألمسَ يدك :
يا صديقي ! أنا الوحـدة

* * *

ليلة أغسطس ـ آب

كتب « موسيه » هذه الليلة بجماح من الشباب ومن الغبطة . فقد كان يستقبل بترحاب في كل مكان ، فيغشى الأندية الارستقراطية ويزور عِليةَ القوم . فهو راض عن نفسه كل الرضى . وتعتبر هذه الليلة أغنية الصبّا وأنشودة الحب .

وقد لامه النقاد لاهماله الالهام وسعيه وراء المغامرات العشقية . وتبدو نبرات الشاعر في هذه الليلة ليست أقل حرارة من غيرها من الليالي وعندما يتعمق المرء في دراسة هذه الليلة يبدو له أن تلك الغبطة ليست الا ضرباً من القنوط واليأس .

ربـة الشعر

منذ أن تخطت الشمس في الأفق الرحب
برجَ السرطان على محورها المشتعلَ
غادرتني السعادة فانتظرت بكل سكينة
الساعة التي يدعوني بها حبيبي .

واحسرتاه ! منذ زمن وبيته مقفر خال ،
ولم يبق شيء حي من أيامه الحلوة ٠
انا وحدي ، آتي ملتفّة بملاءتي
واضعة جبهتي اللاهبة على عتبة بابه النصف مفتوح
كأرملة تبكي على قبر ولد ٠

الشاعر

سلاماً ، يا صديقتي الأمينة !
سلاماً ، يا مجدي ! يا حبي !
أنت خير من اجده
لدى عودتي وأعزه ٠
لقد خطفني الطمع والفكرة
زمناً(١) ٠
سلاماً ، يا أمي ومربيتي !
سلاماً سلاماً ، يامعزيتي !
افتحي ذراعيك ، انني قادم لأغني

ربة الشعر

لماذا ، يا ذا القلب الظمآن ! ياذا القلب المجهد من الأمنيات !
لماذا تهرب مني في كثير من الاحايين لتعود الي متأخراً ؟

(١) اشتغل فترة بالسياسة ونشر المقالات حباً بالكسب .

وعلى ماذا تفتش ، ان لم يكن على بعض الحظوظ ؟
وماذا تجلب لنفسك ، ان لم يكن بعض الآلام ؟
ما تفعل في بعدك عني ، وانا بانتظارك حتى شروق الشمس ؟
انـك تتبع برقاً باهتاً في ليل عميق
لم يبق لك من لذائذ الدنيا
الامقت عاجز لحبنا الشريف
عندما وصلت الى غرفة دراستك وجدتها خالية
فوقفت أنظر من هذه الشرفة ، وأنا حائرة قلقة
الى جدران حديقتك ، وأفكر :
انك تستسلم في الظل لقدرك الخبيث(٢) ٠
ان بعض الجمال المتكبر يكبلك بقيده ،
فتترك ذلك النشاط الذي يجب أن تسقي آخر أغصانه
ـ في أزمنة أكثر سعادة ـ بدموع عينيك ٠
ان تلك النضارة الكئيبة كانت رمزي الحي ،
ياصديقي ! من نسيانك نموت معاً ،
فعبيره الخفيف يطير
بذكراي ضارباً في الأجواء ٠

الشاعر

رأيت ـ هذا المساء ـ في الدرب ،

---

(٢) الركض وراء المراة .

عندما مررت في المرج
زهرة مرتعشة ذابلة
زهرة شاحبة من النسرين ،
ورأيت الى جانبها برعماً أخضر
يتأرجح على الشجيرة !
رأيت في البرعم زهرة جديدة تبدأ بالتفتح ،
وكانت الزهرة الفتية أكثر جمالا ٠
وهكذا يجب على الانسان أن يتجدد ٠

ربــة الشعر

واحسرتاه ! دائماً انسان ! واحر قلباه ! دائماً دموع !
ودائماً رجلان مقبرتان وعرق يكسو الجبين !
دائماً معارك مقيتة وأسلحة مدماة !
كم ينكر القلب الجرح في أعماقه ٠
واحسرتاه ! في كل بلد نفس الحياة :
الرغبة ، الأسف ، الأخذ والعطاء ،
دائماً نفس الممثلين ونفس المهزلة ،
كل هذا ابتدعته البراءة الانسانية ،
ليس بحقيقي الا الهيكل البشري ٠
واحسرتاه ! يا حبيبي ! لم تعد شاعراً

الشاعر

عندما اجتزت الوادي
كان طائر يغني في عشه ٠
وصغاره ، صغاره العزيزة عليه
ماتت في الليل ٠
ومع ذلك فهو يغني للفجر ٠
لاتبكي يا ربتي !
ان فقدنا الكل فالله باق
الله في العلى ، والأمل هنا ٠

ربة الشعر

وما عساك تجد ، في يوم يعيدك
بؤسك الى بيتك الأبوي ؟
وماذا تجد ، عندما تمسح الغبار بيديك الواجفتين
عن تلك العزلة التي تظن أنك نسيتها ٠
بأي وجه تعود الى بيتك الخاص
لتفتش عن قليل من الهدوء وكرم الضيافة ؟
سيكون وقتذاك صوت يصرخ في كل آونة ،
في أعماقك : ما فعلت بحياتك وبحريتك ؟
أتظن اذن أننا ننسى أكثر مما نأمل ؟
وهل تظن أنك ستجد نفسك اذا ما درت عليها ؟

مَنِ الشاعر ؟ أأنت أم قلبك ؟
انه قلبك ، وقلبك لن يجيبك .
قد يحطمه الحب وتحوله الرغبات المشؤومة
الى حجر ، من كثرة احتكاكه بالخبثاء ،
وعندها لن تشعر الا ببقايا رهيبة
تتلوى فيك كما تتلوى الأفعى .
ماذا فعلت ـ ياحبيبي ـ بأيام شبابك ؟
من قطف ثَمَرتي من شجرتي الفينانة ؟
واحسرتاه ! كان محياك يعجب الآلهة
التي تحمل بين يديها القوة والصحة
لقد أذبلت الدموع المجنونة خدك ،
ومن جمالك(٣) ستضيع الفضيلة .
انا التي احبك كصديق لي وحيد ،
بماذا تجيبني اذا ما الآلهة الغضبى
نزعت مني عبقريتك وأسقطتني من العلى ؟

الشاعر

طالما ان عصفور الغابات يطير ويغني
بين الأغصان وقد تكسر بيضه في عشه ،
وطالما زهرة الحقول التي تتفتح مع الفجر

(٣) القوة الفكرية والخلقية .

وهي ترمق ، في الروض ، زهرة تتفتح
فتنحني (زهرة الحقول) بكل هدوء وتسقط مع الليل(١)

* * *

طالما في أعماق الغابات ، تحت أسطحة الخضرة
نسمع تحطيم الخشب الميت ، في الدرب ،
وطالما ان الانسان الخالد وهو يجتاز الطبيعة الخالدة
لايعرف من كل العلوم
الا أن يمشي دائماً وينسى دائماً ٠

* * *

طالما أن الصخور تتحول الى غبار ،
وطالما كل شيء يموت مساء ليتجدد مع الصباح
وطالما أن القتل والحرب عبارة عن سماء ،
وطالما من القبر تنبعث
تلك القشة من العشب فتقدم لنا الخبز ٠

* * *

ياربتي ! لقد تساوى لدي الموت والحياة ٠
وأحب ، وأريد أن أذوب ، وأحب وأريد أن أتألم

(١) تاركة لغيرها حق النماء .

أحب ، ولقاء قبلة واحدة ابذل عبقريتي ٠
أحب ، وأريد أن أشعر على خدي النحيل
بسيلان نبع ، لايملك أن ينضب
أحب وأريد أن أتغنى بالفرح والخموں ،
وبتجربتي المجنونة ووساوسي اليومية ،
أريد أن أقص وأن أعيد دوماً ما قصصت ،
بعد أن اقسمت بأن أعيش دون عشيقة ،
اقسمت أن أعيش للحب وأن أموت في سبيله ٠



تعري أمام الجميع من الكبرياء التي تفترسك ،
يا ذات القلب المنتفخ بالمرارة ، وكنت تظنين أنه مغلق ٠
أحبي وستولدين من جديد ، كوني زهرة دائمة التفتح ٠
بعد أن تألمنا يجب أن نتألم
ويجب أن نحب دوماً بعد أن أحببنا ٠

ليلة اكتوبر ـ تشرين الاول

ربما كانت هذه خير لياليه ولكن الاختيار صعب ٠ في هذه الليلة تختلف النبرات من حقد الى صفح الى حنان ، وتتغير النغمات وفقاً للعواطف وايقاع الأبيات الجامح أو الهادىء مع سلامة في اللغة والتعبير ، مما يجعل منها تحفة فنية رائعة ٠

كان موسه ذا صلة « بأيمي دالتون» وهي فتاة شقراء ناعمة لطيفة رقيقية • وكانت ابنة عم صديقه «دالتون شي» • وقد تزوجت، بعد وفاته، بأخيه بول موسه • لقد كان الشاعر ينظم هذه الليلة وهي تقرأ ما يكتب من وراء كتفه • وربما قالت في نفسها : «كم كان يحبها» - جورج صاند - •

في هذه الليلة توبخه ربة الشعر وتلومه على خموله وتذكره بايحاءاتها السعيدة • ولكن الشاعر أجابها بأنه مستسلم الى هياجه • لقد غدر به حبه •

الشاعر

ان المرض الذي أشكو منه هرب مثل حلم ،
ولا أستطيع الا أن أشبه تلك الذكرى البعيدة
بالضباب الرقيق الذي يثيره الفجر
والذي نشهده يتلاشى مع الندى •

ربة الشعر

ما بك يا شاعري ؟
أي هم غامض
أبعدك مني ؟
واحسرتاه ! انني لا أزال أشعر به •
ما هذا المرض الذي أجهله
والذي بكيته طويلا •

الشاعر

انه مرض متداول مبتذل معروف من الناس جيداً ،
ولكننا عندما نصاب بقليل من السأم في النفس •
نتخيل ـ نحن المجانين المساكين ـ
ان لا أحد شعر بألمه قبلنا •

ربـــة الشعر

لاغم مبتذل
الا غمٌ نفس مبتذلة •
يا صديقي ! لينطلق هذا السر الكئيب
من بين حناياك ـ الآن ـ
ثق بـــي ، تكلم بكل ثقة
فاله الصمت القاسي
وأحد اخوة الموت ،
عندما نتشاكى نتعزى •
وربما كلمة واحدة تخلصنا من عذاب الضمير •

الشاعر

اذا كان من المحتم علي أن أتكلم الآن عن ألمي ،
ولاأدري أي اسم اطلقه على هذا الألم •
هل هو حب ، جنون ، كبرياء ، تجربة • لا ادري
حتى ولا أعلم اذا كان أحد الناس استفاد منه •

ومع ذلك سأروي لك قصته ،
طالما نحن وحدنا ، جالسين قرب المدفأة .
خذي هذا العود ، اقتربي ، ودعي
ذاكرتي تستيقظ شيئاً فشيئاً على ايقاع لحنه .

ربــة الشعر

قبل أن تحدثني عن ألمـك
أيها الشاعر هل برئت منه ؟
فكر ، ان حديثك الآن
سيكون خلواً من الحب ومن الحقد .
واذا كنت تذكر بأنني احمل
اسم المعزية الجميل ،
فلا تجعل مني شريكة اهوائك
التي أضاعتك .

الشاعر

لقد شفيت تماماً من ذلك المرض ،
وان كنت أشك احياناً في ذلك عندما أفكر فيه
وفي الأمكنة التي تعرضت فيها حياتي للخطر (١) ؛
وأعتقد بأنني ارى لنفسي وجهاً آخر (٢) .

---

(١) كان ذلك في البندقية مع جورج صاند .
(٢) غير وجهه الأول عندما كان يحبها اي جورج صاند .

ربة الشعر ! لاتخشي شيئاً ، ففي النفثة التي توحي اليك
نستطيع بها أن تتوادع أسرارنا دون أي محذور
من الجميل أن نبكي ومن الجميل أن نبتسم ،
وبذلك نستطيع أن ننسى ذكرى البؤس ٠

ربــة الشعر

مثل أم يقظة
تنحني على سرير ولد حبيب
أنحني وأنا واجفة
على هذا القلب الذي اغلق في وجهي
تكلم يا صديقي ! فعودي مصغ
لكل نأمة شاكية
تقتفي اثر نغمات صوتك
وفي خيط من الشعاع
تمر ظلال الماضي
مثل رؤيا لطيفة

الشاعر

أيام العمل ! انها الايام التي عشتها(١) ٠
وانت ، أيتها الوحدة المحببة ثلاثا الى قلبي !

---

(١) ظل موسه يعمل دون انقطاع ليكسب رزقه .

من الحمد يارب ! ها قد عدت
الى غرفة الدرس القديمة
انها كوخ حقير ما أكثر ما عريت جدرانه !
مقاعده مغبرة مصباحه الأمين ،
يا قصري ! يا عالمي الصغير !
وانت يا ربتي ! أيتها الخالدة الفتية
لك الحمد يا رب ! سنشرع اذاً بالغناء !
أجل ، أريد أن أفتح لك روحي ،
فتعرفين كل شيء ، وسأقص عليك
ما أحدثته امرأة من شقاء(٢) .

ربـــة الشعر

كفاك ، أيها الشاعر ! بالنسبة لغادرة .
اذا كانت ظنونك لاتعمر الا يوماً واحداً ،
فلا تشتم هذا اليوم عندما تتحدث عنها ،
وان اردت ان تحب ، فاحترم حبك
واذا كان الجهد الذي نبذله أكبر من ضعفنا البشري
وأننا لا نستطيع ان نغفر ما يجليه غيرنا من الاضرار ،
فلنتجنب ـ على الأقل ـ عذاب الحقد ،
وان كنت لاتستطيع الغفران ، دع النسيان يأتي .

---

(٢) هذا موضوع القصيدة .

الموتى يرقدون بسلام في باطن الارض .
وهكذا يجب أن ترقد مشاعرنا المنطفئة .
للقلب مخلفات جليلة ولكن لها غبارها أيضاً ،
ويجب أن نبعد أيدينا عن تلك المخلفات المقدسة .
لماذا ، في هذه القصة المثقلة بالألم الحي ،
لاتريد أن ترى فيها الا حلماً مزعجاً وحباً مخدوعا ؟
هل تتصرف العناية الالهية دون أي سبب ؟
وهل تظن بأن الله لم يختبرك ؟
ربما كانت ضربته هذه التي تشكو منها قد انقذتك .
أيها الولد ! من هنا غزيت ، فانفتح جرح قلبك .
الانسان خادم يتعلم والألم معلمه .
ولا أحد يعرف نفسه اذا لم يتألم .
انه دستور قاس ولكنه دستور جاء من فوق
وقديم قدم العالم وقدم القدر المحتوم .
لقد كتب علينا الشقاء منذ خلقنا
وبهذا الثمن نشتري الحياة
ولكي ينضج الحصاد لابد له من الندى ،
ولكي يحيا الانسان ويشعر لابد له من البكاء ،
ان للفرح رمزاً هو نبتة كسرت
وهي لم تزل بعد رطبة من المطر ومكسوة بالزهر .
ألم تقل : انك برئت من جنونك ؟

ألم تكن شابا سعيدا يرحب بك في كل مكان ؟
وتلك الرغبات اللطيفة التي تجعلنا نحب الحياة
لو لم تبكها ، ما نفعل بها ؟
عندما يميل النهار ـ وأنت جالس على النبات ـ
تشرب بحرية مع صديق لك ،
قل لي : هل ترفع كأسك من كل قلبك
لو لم تشعر أنك قد قدمت ثمن الغبطة ؟
أتحب « بترارك » ونشيد الطيور
أتحب « ميكال أنج » والفنون و « شكسبير » والطبيعة ،
لو لم تجد في كل ذلك بعض الزفرات العتيقة ؟
هل تفهم نغم السموات الخفية ؟
وهل تفهم هدوء الليل وتمتمة الأمواه
لو لم تجد في الماضي الحمى والأرق
اللذين جعلاك تفكر بالراحة الأبدية

* * *

يا ولدي ! ارحمها ، ارحم تلك الجميلة الغادرة ،
التي أجرت ـ من قبل ـ الدموع من عينيك ،
اعطف عليها ! انها امرأة ، والله جعلك بقربها
تعرف ـ وأنت تتألم ـ سر السعداء .
كانت مهمتها قاسية ، وربما كانت تحبك ،

ولكن شاء القدر أن تحطم قلبك .
انها كانت تعرف معنى الحياة ، وعرفتك اياه
لقد قطف غيرك ثمرة أحزانك
أرحمها ! ان حبها مر كحلم نائم ،
رأت جراحك ، ولكنها لم تستطع أن تضمدها .
صدقني ، لم تكن كاذبة في بكائها ،
اشفق عليها ، ولو كذبت على نفسك ، انك لم تزل تعرف كيف تحب

الشاعر



قلتِ حقاً ، فالحقد كفر ،
وهو ارتعاش ملؤه الرعب ،
عندما نترك هذه الأفعى الظمأى
تلتف على نفسها في صدرنا
اصغ الي اذن ، يا ربتي
وكوني شاهدة على يميني :
أقسم بحق عيني عشيقتي الزرقاوين ،
وبلازورد السماء ،
وبتلك الشرارة اللامعة
التي تحمل اسمها من « فينوس »
والتي تشع بعيدا في الأفق

مثل لؤلؤة واجفة ،
برحمة الخالق
بالضياء الهادىء الصافي
من نجمة عزيزة على المسافر(١) ،
بأعشاب المروج ،
بالغابات ، بالغياض الخضراء ،
بقـوة الحيـاة ،
بنسغ الكـون ،
سأبعدك عن ذاكرتي
يا بقية حب مجنون ،
وسترقد في الماضي
تلك القصة الغامضة الكامدة ،
أنت التي كنت تحملين من قبل
اسماً حلواً له شكل ،
فاللحظة السامية التي انساك فيها
يجب أن تكون لحظة الغفران ،
لنغفر ، انني أقطع القوة السحرية(٢)
التي كانت تجمعنا أمام الله ،

---

(١) النجمة القطبية .
(٢) جعل الحب قوة سحرية تقطع سلسلة حلقاتها .

ومع آخر دمعة – اذرفها –
تقبلي وداعاً أبدياً ٠
والآن ، يا ربتي الشقراء الحالمة
هيا بنا الى حبنا !
اعزفي بعض الأغاني المفرحة
كما كنت تعزفين في الزمن الأول من أيامنا الجميلة ٠
ان الروض المعطر
يشعر بدنو الصباح ،
تعالي ، أيقظي يا حبيبتي !
زهرات الحديقة واقطفيها ٠
تعالي تري الطبيعة الخالدة
تخرج من غلائل النوم ،
اننا سنولد معها
مع شعاع الشمس الأول(١) ٠

اكتوبر ١٨٣٧

* * *

(١) يقصد صباح الأمل الجديد .